« ادبيات المتناولة » يشير على صاحب العرفان ان يتأمله فيعدل عن الطعن بتلامذة اليسوعيين الذين بينهم الشيعيون الاشراف والمفتخرون باساتذتهم وقد اثنى عليهم مؤخرًا جلالة شاه العجم عند زيارته لمكتبنا الطبي اطيب الثناء وطلب هو وحاشيته لوائح المدارس اليسوعية ليرساوا اليها ابناءهم كما فعل سابقاً فرمان فرما من كبار دولته واقارب جلالته . فمتى يا تُرى يعدل صاحب العرفان الى الانصاف ؟

الكنيسة الكاثوليكية

بإزاء ديوان التفتيش

نظر تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

ورد علينا من غدراس بفترح كمروان سؤالان عرضهما علينا الاديب اسكندر افندي عون على هذه الصورة طالباً الجواب عنهما

١ هل المراطقة الذين كان يُحكم عليهم بالحريق والغريق وعذابات اخرى متنوعة كانت تلك الاحكام تصدر من ديوان التفتيش المؤسس من الباباوات او من سلطة الملوك والحكام ؟

٢ فان كانت تلك الاحكام من الملوك والحكام وهي بالطبع جائرة أما كان يمكن الباباوات ان يحتجوا عليها ؟

الجواب

انَّ ديوان التفتيش واحكامهُ على المراطقة احد التهاويل الثلثة او الاربعة التي لا يزال يردّدها اعداء الكنيسة الكاثوليكية ويصمّون الآذان عن قبول تفنيدها مهما سعى العلماء الثقات في بيان وجه الحقيقة . ولا شكَّ ان جناب المكاتب تأثَّر ببعض ما ينشرهُ المتشدّقون ليقف على صحة الامر ويبدي فيهِ حكماً صائباً فلبّي دعوتهُ بطيب الخاطر . على انَّنا لا نحاول البحث عن هذه المسئلة بكلام طويل تضيق عنهُ صفحات المجلَّة وانَّما نعرضهُ موجزاً بحيث يكفي لازالة الاوهام الباطلة عن عقل طالبي الحقيقة الذين لا يسعهم مراجعة المظانّ الواسعة التي ابرزها العلماء الكاثوليك

١ ما هو ديوان التفتيش ؟ هو ديوان شرعي أسَّستهُ الكنيسة البحث عن الاضاليل الدينيَّة ولاسيما المرطقات المسببة ضررًا عظيماً للايمان المستقيم ولنظام السلطة الروحيَّة بل للهيئة الاجتماعيَّة نفسها

٢ ﴿ما هو اصلهُ﴾ اصلهُ من حيث تسلافي شرور الضلال واستدراك التعاليم الكفريَّة يرتقي الى اوائل الكنيسة نفسها اذ انَّ المسيح بتخويلهِ سلطتهُ الالهيَّة لرسلهِ جعل وديعة الايمان في يدهم ليحفظوها ويدافعوا عنها لئلَّا تُصاب بأذى وهو القائل جلَّ اسمهُ (متى ١٨ : ١٧) : «من لم يسمع من البيعة يُعتبر كوثني وعشَّار». وفي اعمال الرسل ورسائلهم ما يثبت حرصهم على تلك الوديعة الثمينة وتصديهم لمن يخلُّ بها. وكفى بذكر ما كتبهُ بولس الرسول الى تلميذهِ طيطس (١ : ٧-١١) : ينبغي للاسقف ان يعظ بالتعليم الصحيح ويحاجَّ المناقضين لأنَّ كثيرين هم عُصاة وذوو كلام باطل وخدَّاعون ولاسيما الذين من الختان فينبغي ان تُسدَّ افواههم». ومثلهُ في رسالتهِ الثانية الى تيمرتاوس (٢ : ٢) : اكرز بالكلمة واحجج ووبِّخ . . فانهُ سيأتي زمان لا يحتملون فيهِ التعليم الصحيح بل على وفق شهواتهم . . فيصرفون مسامعهم عن الحقّ ويعدلون الى الخرافات». ولمَّا كان الاساقفة في الكنيسة هم خلفاء الرُّسل ولاسيَّما الحبر الاعظم خليفة هامتهم اقتضى عليهم ان يسيروا في حفظ وديعة الايمان على مثال تلامذة السيِّد المسيح وفقاً لما ورد في سفر الاعمال (٢٠ : ٢٨-٣٠) في خطاب بولس الرسول لزعماء كنائس آسية في افسس حيث قال: «احذروا لانفسكم ولجميع القطيع الذي اقامكم فيهِ الروح القدس اساقفةً لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمهِ فاني اعلم انهُ بعد فراقي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تُشفق على القطيع . . . فاسهروا اذن . . .»

وبناء على هذه المراقبة الحبريَّة والاسقفيَّة عُقدت المجامع المسكونيَّة والمحليَّة لاثبات حقائق الايمان والضرب على يد من ينتهك حماها

٣ ﴿ديوان التفتيش الروماني﴾ ان اتساع حكم الكنيسة الكاثوليكيَّة وانتشارها بين الامم القاصية كان يقتضي بزيادة حرص على سلامة التعاليم المسيحيَّة وتلافي ما ينجم عن المحاكم الاسقفيَّة الخاصَّة من المبالغة في التشدُّد على المتَّهمين بالضلال وبعكس ذلك التراخي في مصادرتهم فحكم رؤساء الكنيسة الاعظمون باقامة ديوان اعلى تُرفع اليهِ الدعاوي المختصَّة بالايمان ليقضي بصحَّة تلك التعاليم فيبرِّر قائليها او يزيفها ويعلن للكنيسة بفسادها ساعياً بانارة القائلين بها ليرتدُّوا الى المعتقدات الصحيحة

وممَّا دفع الاحبار الرومانيين ايضاً الى اقامة الديوان المذكور رغبتهم بان يلطِّفوا احكام السلطة المدنية التي منذ عهد قسطنطين وخلفائهِ القياصرة المتنصِّرين كانوا

يعتبرون الشرود عن الايمان والمجاهرة بالهرطقة كجنايات دولية لا ينجم عنها غالباً من الفتن فكانوا يحكمون على اصحابها بالعقوبات المادّية الصارمة من ضرب وقطع وقتل فانّ قضاة الدولة حكموا غير مرّة بالاعدام على اتباع مانى وغيرهم من الهراطقة . وكانت الكنيسة تأنف من هذه الاحكام فاننا نجد في ما كتبهُ الآباء كالقديس يوحنّا فم الذهب والقديس امبروسيوس اسقف ميلانو والقديس مرتينوس اسقف طور في فرنسة رسائل الى الملوك يرذلون فيها تلك الاحكام ويطلبون الاجتزاء بالتأديبات الروحيّة كالحرم والمنع من الاسرار

الّا انّ تحامُل الهراطقة على المؤمنين واضطهادهم لذوي الدين المستقيم بيّن لكل العقلاء انّهُ لا بُدَّ من ردّ كيد هؤلاء في نحرهم . فانّ القديس اوغسطينوس الذي كان في اوّل الامر لا يرضى بغير العقوبات الادبيّة استصوب اخيراً التأديبات الماديّة كالحبس ودفع الغرامات والنفي الّا انّهُ لم يشأ ان يُقتَل احد لمجرّد الهرطقة . وعلى رأيهِ سار معظم الآباء واللاهوتيين في جهات الغرب . على انّ الشعب ما كان ليرضى بمثل هذه الاحكام المعتدلة فكثيراً ما كان يثور على المبتدع ويرسمهُ ضرباً وقتلاً الى ان يموت بيدهِ . ثمّ استفحل الشرّ وزاد الامر تفاقماً بظهور بدع الكاثاريين والألبيجيين في جنوبيّ فرنسة في اواخر القرن الثاني عشر فكانوا اشبه بالبولشفيك يطوفون البلاد ويعيثون فيها فساداً بالنهب والسلب والحريق والقتل بحيث اصبح وجودهم آفةً للهيئة الاجتماعيّة والنظام المدني . فالتجأ الامبراطور فردريك الثاني بربارُوسّا الى البابا لوشيوس الثالث واتّفقا في توحيد السلطتين الروحيّة والمدنيّة للضرب على ايدي هؤلاء الأئمة الغُلاة فاجتمع الاساقفة في مدن شتّى وألّفوا لجاناً للبحث عن اولئك الهراطقة حتى اذا وقفوا على افكارهم السيئة يرفعون دعواهم الى الديوان الاسقفي الذي بعد التفتيش المدقّق واثبات جرمهم وعنادهم يسلّمهم الى الديوان المدني الذي لهُ ان يرتأي في امرهم ما يشاء من العقاب حتى الحكم بالاعدام والعقاب بالنار كما كان الامر شائعاً في ذلك العهد . وكان للاحبار الرومانيين مَن يمثلهم في هذا التفتيش . ومن جملتهم كان القديس دومنيك منشئ رهبانيّة القديس عبد الاحد

على انّ فردريك الثاني لم يجد في الدواوين الاسقفيّة غيرةً كافية لكبح الفساد واخذ على نفسهِ ان يدوّن تقريراً شديداً في حقّ الهراطقة ليضع حدّاً لتظاهرهم

ورجاساتهم ونشره سنة ١٢٢٠ في ڤينّا فخاف البابا اينوشنسيوس الثالث ثمّ خلفهُ غريغوريوس التاسع ان يستبدّ الامبراطور بمحاكمة الهراطقة وجرُمهم قبل كلّ جرم ديني ولذلك عيّن البابا غريغوريوس ناظرًا رسوليًّا من قبلهِ ليراقب انحاء البلاد الموبوءة بالهرطقة ويؤلف محكمة لا حكم للاساقفة عليها للتفتيش على نافثي سموم البدع وقطع دوابرهم بتسليمهم للحكم المدني الذي له ان يعاقبهم كيفما شاء . وهذا هو ما عُرف بعد ذلك بديوان التفتيش اناطهُ الحبر الاعظم بالرهبان الدومنيكان سنة ١٢٣٣ ولم يُقم هذا الديوان في كلّ دولة وانّما أقيم فقط في البلاد التي كان يُخاف فيها من مساوئ اولئك الهراطقة . وكان لهذا الديوان دستورٌ خاصّ في بنود متعدّدة يجب على اعضائه ان يجروا عليها ولا يحيدوا عنها لئلّا يجوروا بحكمهم او يحكموا جزافًا . وكان محظورًا عليهم ان يحكموا بالاعدام على احد بل لم يُسمح لهم باستعمال ادوات العذاب الّا نادرًا جدًّا . وكانوا اذا وجدوا مبتدعاً مصرًّا على عناده وسوء تصرُّفهِ حكموا عليهِ ببعض العقابات الروحيّة بل المادّيّة ايضاً كالحبس او الغرامة الماليّة وما كانوا يسلمونهُ الى القضاة المدنيّين الّا اذا كان ذا سوابق وعاد غير مرّة الى مفاسدهِ او كان من زعماء الهراطقة فيُجري القضاة في حقّهِ القانون الشائع في ذلك العهد اعني ان يُحرق بالنار ما لم يَتُب عن كفرهِ وائمهِ فاذا فعل عُفي عنهُ . امّا عدد الذين اسلمهم ديوان التفتيش الروماني لحكم الديوان المدني فقليلون جدًّا كانوا في ديوان مدينة طولوز بنسبة عدد الواحد الى ٢٩ مجرماً وكان ديوان التفتيش محصورًا في بعض البلاد فقط ولا يتجاوز حكمهُ الى غير النصارى الخاضعين لرومية . فمن يا تُرى ينكر على الكنيسة سلطتها على محاكمة ابنائها ؟

هذا كان ديوان التفتيش الروماني فانهُ ادّى للكنيسة وللمجتمع الانسانيّ خدماً لا تُحصى بما منعهُ من الشرور والمظالم وقد اقرّ اعداء الكنيسة نفسهم انّ الذين كان الكرسيّ الرسولي يعهد اليهم رئاسة ديوان التفتيش كانوا رجالًا افاضل وعلماء لا يحابون الوجوه ويجرون في تفتيشهم بكل نزاهة كما انهم حكموا بعدالة القوانين التي وضعها الاحبار الرومانيون لذلك الديوان وصرّحوا بانها مملوءة حكمةً وفطنةً . ولا ننكر انّ في ديوانٍ مثل هذا وُجد في ممرّ الاجيال بعض الافراد الذين تجاوزوا الحدود ونسوا روح الوداعة المناسب لدرجتهم وانّما كان ذلك على طريق الشواذّ وكان

الباباوات اذا علموا بتطرُّفهم كتبوا لهم ووبَّخوهم على فعلهم كما يتَّضح من بعض رسائلهم . امَّا ما يرويه الاعداء في دعوى غليلاي فقد فنَّدناهُ بفصلٍ موسَّع عنوانهُ «صواب الرأي في دعوى غليلاي» (فليراجع في المشرق ٩ [١٩٠٦]: ١٧٨–١٨٤ و ٥٧٠).

وديوان التفتيش الروماني هو اليوم احد الجامع المقدَّسة في رومية يرأسهُ قداسة الحبر الاعظم بنفسهِ ولهُ كاتم اسرار من الكرادلة . فمن اختصاصات هذا المجمع المحافظة على كلّ امور الايمان والآداب بهِ يناط الحكم في المرطقات والكتب المحرَّمة وفي المسائل الاعتقاديَّة المتعلّقة بالاسرار وخصوصاً بسرّ الزواج

٤ ﴿ديوان التفتيش الاسباني﴾ كثيراً ما يخلط الكتبة بين ديوان التفتيش الرومانيّ الذي مرَّ ذكرهُ وعرفتَ فضلهُ وبين الديوان الاسبانيّ الذي غلبتْ فيهِ السياسة على الدين . والفرق بينهما من وجوه مختلفة من حيث اصلهِ وغايتهِ وسائطهِ وتدبيرهِ

﴿اصلهُ﴾ يرتقي اصل هذا الديوان الى القرن الخامس عشر أنشئ سنة ١٤٧٨ بانشاء الملك فرديننذ المعروف بالكاثوليكيّ والملكة ايزابيل قرينتهِ وكلاهما من اعظم ملوك زمانهما كفاهما فخراً انَّ كريستوف كولمب تمكَّن بفضلهما من اكتشاف اميركا . فهما اللذان طلبا من البابا بكسطوس الرابع ان يؤلف في مملكتهما ديواناً للتفتيش فرضي بذلك

﴿غايتهُ﴾ كانت غاية ديوان التفتيش الاسباني مضاعفةً دينيَّة من جانبٍ وسياسيَّة من جانب آخر . وجدت الملكة ايزابيل وفرديننذ الملك زوجها بلاد اسبانية لمَّا جلسا على عرش الملك عرضةً للفتن والدسائس هدفاً لاعداء المملكة

وكان العدوّ الاكبر والالدّ العنصرَ اليهودي . فانَّ اليهود كانوا منذ ثلثمائة سنة نموا وتشدَّدوا واحتكروا على معظم ثروة اسبانية بالربا وضروب الدسائس فاستولوا على كثير من مناصب الدولة وبثّوا بين الشعب زوَّان تعاليمهم الفاسدة واباطيلهم المستقبحة . وكان ملوك اسبانية توسَّلوا بوسائل متعدّدة تارةً باللطف والاقناع وتارةً بالعنف والجبر ليردُّوهم الى الايمان المستقيم فأتت مساعيهم احياناً ببعض النتائج الحسنة لاسيما بمساعدة الرسلين والرهبان وخصوصاً بمساعي القديس الدومنيكي ثنسان فيريه رجل العجائب الذي ردَّ الالوف منهم فحسُن تنصُّرهم . الَّا انَّ القسم

الاوفر ما كان يتظاهر بالنصرانية الّا مُكرَهاً خوفاً من النفي او استصفاء الاموال وكان مثل هؤلاء المتسترين اعظم شرّاً واوفر خطراً على الدولة لسيرهم بالمرآء والمكر. فلم تجد ايزابيل وفرديننذ زوجها وسيلة لحفظ البلاد من هذا الداء الوبيل الّا بانشاء ديوان التفتيش

وكان في الوقت ذاته خطرٌ آخر يتهدّد الدولة . وذلك انّ فرديننذ وزوجتهُ توفّقا في السنة ١٤٩٢ ففتحا غرناطة وهي آخر معقل كان المسلمون ثبتوا فيه بالاندلس بعد سقوط بقيّة بلادهم في ايدي ملوك اسبانية . ثمّ عرضا على المسلمين احد امرين امّا البقاء في املاكهم مع التنصّر واما الخروج من تلك البلاد فرضي كثيرون بان يدينوا بالنصرانيّة حرصاً على اموالهم . بيد انّ اولئك المتنصّرين لم يرتدّوا عن يقين وثبتوا باطناً على معتقدهم . ومن ثمّ اصبحوا باختلاطهم مع النصارى المؤمنين وباشتراكهم معهم بالمعاملات والزواج وكلّ مناصب الدولة حجرَ عثار في سبيل الكاثوليك. فاستدعت هذه الحالة الحرجة الملكين فرديننذ وايزابيل على اطلاق سلطة ديوان التفتيش عليهم ايضاً مع اليهود لسلامة المملكة وحفظ دينها المستقيم

﴿ تدبير ديوان التفتيش الاسباني ﴾ انّ تدبير هذا الديوان كان في ايدي ملوك اسبانية . كان الحبر الاعظم يعيّن له رئيساً يتولّى شؤونهُ مع لجنةٍ خاصّة من رجال الدين والعلماء يرجع اليهم الفحص عن صحّة الشكاوى المرفوعة اليهم واستماع الشهود ودفاع المتّهم عن نفسهِ ليجيزوا الحكم الصائب في حقّهِ . وانّما كان الملك هو الذي يؤلّف من اهل دولتهِ شورى لتنفيذ أحكام اللجنة الفاحصة بالعقاب المناسب . وانّما كان للملك سلطان على اللجنة نفسها في انتخاب اعضائها بل في تغيير رئيسها . وبذلك اصبحت اللجنة غير مرّة تحت نفوذ سلطة الملوك وآلة لغاياتهم الشخصيّة . فاضطرّ الاحبار الرومانيّون ان يحتجّوا على اعمال ذلك الديوان ويبلّغوا الملوك عدم رضاهم بها . بل ضربوا باللوم رئيسهُ كما فعل البابا لاون العاشر الذي حرم رؤساء ديوان التفتيش الاسباني سنة ١٥١٩ وامر احبارٌ غيرهم بان تُرفع دعاوي ذلك الديوان الى الكرسي الرسولي ليبدوا فيها حكماً أعدل وانزه كما فعل البابا القديس بيوس الخامس اذ ابطل حكم ديوان التفتيش بحق برتلماوس دي كرّانزا رئيس اساقفة طليطلة الذي كان الديوان حكم عليهِ دون تروٍّ . ولا شكّ انّ الديوان الاسباني تجاوز حقوقهُ غير مرّة

وفضّل اصحابهُ مشيئة الملك على صوت الضمير . الّا انهُ لا يجوز ان تُنسب الى الكنيسة تلك الاحكام غير المتدنة التي صدرت من الديوان المذكور على خلاف رضى الحبر الاعظم . وكذلك العقوبات التي كانت شورى الدولة تجريها في حقّ المتّهمين بعد فحصهم كان المسئول عنها اهل الدولة خصوصاً فجاروا في حكمهم مرارًا

على انَّ هذه الاغلاط والمعاملات المذمومة لا تكاد تُحسب اذا قوبلت بالنتائج الحسنة التي صدرت من هذا الديوان الاسبانيّ نفسهِ . فانهُ ضمَّ اطراف الدولة الاسبانيَّة وطهَّرها من العناصر الغريبة الساعية في فسادها

فلمَّا ظهرت البدعة البروتستانيَّة واستفحل شرُّها في المانية وانكلترَّة وبلاد الشمال وفي قسم كبير من فرنسة قامت الحروب الدينيَّة على ساق ومات بسببها عشرات الالوف ومئات الالوف من الناس بقيت اسبانية في هدوئها وسكينتها ورقيها بفضل ديوان التفتيش

وكذلك لمَّا قامت جلبة الجنسنيانيين والفلاسفة الملحدين والثورة الكبرى في فرنسة فسعى دُعاة هذه البدع والمشاغب في القرن الثامن عشر ان ينشروا في اسبانية عدوى اضاليلهم وينفثوا فيها سمومهم كان ديوان التفتيش سورًا منيعاً صان تلك البلاد من مفاسد تلك الثغرات وابقى لاسبانية دينها وشرفها

امَّا ما يُنسَب الى اصحاب هذا الديوان من الاعمال السيّئة وخرق الحدود فانّنا مع تسليمنا ببعضهِ وتقبيحنا تلك المساوئ لا بُدَّ ان نقول في تلطيف تلك الشكايات :

(اوّلًا) ان ديوان التفتيش الاسبانيّ مع كلّ ما اتاهُ من سوء التصرُّف بسلطتهِ لم يبلغ قطّ ما بلغهُ زعماء الاصلاح الموهوم كاوتاروس في المانية وكالفينوس في جنيفة وهنريكوس الثامن وابنتهُ الملكة اليصابات في انكلترَّة مع اعدائهم عموماً ومع الكاثوليك خصوصاً فانَّ اتاريخ مشحون بالشهادات الناطقة بجورهم وظلمهم وتحاملهم على كل من لا يوافقهم على آرائهم الفاسدة وذلك بمجرّد ارادتهم ودون حكم شرعي

(ثانياً) انَّ استعمال آلات العذاب في ديوان التفتيش للحصول على اقرار المذنبين لم يكن امرًا غريباً في زمانهِ بل كان القاعدة العمومية في كل محاكم اوربَّة بلا استثناء فما لاعداء الكنيسة يسكتون عن بقيَّة الدول ولا يلومون في استعمالها غير ديوان

التفتيش كأنهُ هو المتفرّد باستعمالها ؟ فاين الانصاف؟

(ثالثاً) ومما لا يُنكر ان ديوان التفتيش سبق كل المحاكم الاوربية في إلغاء ادوات العذاب لاستنطاق المجرمين . وهذا ما اقرَّ بهِ المؤرخ لورنت (Llorente) احد اعداء الكنيسة المتوفى سنة ١٨٢٣ في تاريخهِ عن ديوان التفتيش قال: « قد أُلغي ديوان التفتيش منذ زمن طويل استعمال العقوبات الجسديَّة في استنطاقاتهِ » وكان سكسطوس الرابع وهو منشىء الديوان الاسباني اوَّل من احتجَّ على استعمال المصادرات والتنكيل . كما يظهر من رسائلهِ

(رابعاً) وكذلك سجون ديوان التفتيش فانَّ لورنت المذكور يقول عنها انها « كانت عموماً نظيفة خالية من الرطوبة مبنيَّة بالعقود ولم يُثقل فيها احدٌ بالاغلال . وكانت تلك السجون لو قُوبلت بسجون الدول كالقصور بالنسبة الى مساكن العامَّة »

(خامساً) وكذلك يزعم اعداء الكنيسة انَّ عدد ضحايا ديوان التفتيش في اسبانية بلغ عشرات الالوف في زمن قصير والصحيح كما اثبت لورنت انَّ عدد المحكوم عليهم بالاعدام في مدَّة ٣٣١ سنة التي بقي ديوان التفتيش في عملهِ لم يتجاوز ٣٥،٠٠٠ اعني ١٠٥ بالتقريب في السنة . ولم يُحكَم الَّا على نصفهم فقط لسبب جنايات دينيَّة والباقون حُكم عليهم لغير ذلك لان الديوان عينهُ كان ايضاً يبحث في جنايات شتى كاللصوصيَّة والسحر والربا الفاحش . قال المؤرخ الانكليزي كوبت (W. Cobbett) « انَّ الملكة اليصابات الانكليزيَّة مناصرة البدعة البروتستانيَّة قتلت في سنة واحدة اكثر مما ضحَّاهُ ديوان التفتيش في طول مدَّة وجودهِ . ولولا اضطهادات امراء البروتستانت الدمويَّة لما امكنهم ان يمدّوا سلطتهم على المانية وسواها »

نرى من كل هذه الملحوظات انَّ اعداء الدين لا يرون الخشبة في عينهم وعيوب اصحابهم ويحاولون نزع القذى من عين الكنيسة . ففيهم يصح قول الربّ (متى ٧: ٥) : « يا مرائي اخرج اوَّلاً الخشبة التي في عينك ثم تأتي وتنزع القذى من عيني »

ومما سبق يستطيع السائل ان يستخلص الجواب على سؤالهِ ويردَّ على اعتراض المعترضين والسلام